ايضا يعني وقوعه في ذل الاهانة التي حاول تجاوزها بالهرب من السلطة ومن عمه ايضا وابنته ..

اذن اشكال متعددة من الموت كان هؤلاء المسافرون يعانونها : موت اليأس والقصور ، موت العجز والذل ، وموت السجن والاهانات ... انواع متعددة من الموت حاولوا تجاوزها والتخلص منها ليقعوا في موت اشد ايلاما واذلالا وقمعا وبؤسا .. موت السفر والهرب ـ الموت في الخزان المقفل ...

لقد كانت معاناتهم من القسوة الى درجة ان لم يعد فيها خطر الوقوع في هذا الموت الاخير كافيا لردعهم عنه ، مدفوعين بعذابات حياتهم ومشدودين بالاماني التي يتطلعون الى تحقيقها . بل ان وضعهم البائس جعلهم يتطلعون الى موت اخر على شيء من الحسد . فابو قيس يترحم على الاستاذ سليم معتبرا اياه « ذا حظوة عند الله » حين جعله يموت « قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود .. ليلة واحدة فقط .. يا الله ! اتوجد ثمة نعمة الهية اكبر من هذه ؟ .. » (٤٣) وكأن هذه الليلة تكاد تصبح ليلة القدر !

وفي هذا التمجيد لموت الاستاذ سليم تضاء الابعاد الحقيقية للسؤال الذي تختتم به الرواية . فمن سقوط القرية ، من زمن الهزيمة سنة ١٩٤٨ منذ قيام اسرائيل ، منذ بدء التشتت والضياع ... تتحدد اسس ومرتكزات موت يتبدى بأشكاله المتعددة التي رأينا . ما قبل ذلك كان امرا اخر ، كان حياة اخرى ، وكان موتا مختلفا . كان ارضا وزمنا مختلفين تماما ...

اذن فان السؤال الاخير الذي تختتم به الرواية ابعد من ان يستدعي ردا على طارحه ، ومحاولة لاجابة نهائية عليه ، يتطلب تفسيرا لهذا الموت المستمر نزفا سريا واجتثاثا مهملا ... تفسيرا يجد اسسه ومرتكزاته في تفسير النص الروائي ذاته كما حاولناه حتى الان .

ضمن هذا الاطار يبدو عقم سؤال كهذا . وهو ليس عقيما فقط لان ابا الخيزران المخصي هو الذي يطرحه ، ويطرحه بعد ساعات من حادث الموت ذاته (*) ويأتي في طرحه مكررا تسع مرات لاسم الاستفهام المستعمل ( لماذا ) مؤكدا في هذا التكرار الدور الخاص الذي لعبه هو في قتلهم (**) مذكر بالتالي بما يحاول هذا السؤال ذاته ان يغفله

---

(*) اكتشف ابو الخيزران موت الفلسطينيين الثلاثة في الخزان بين الدقيقة الواحدة والخمسين والدقيقة الثانية والخمسين بعد الساعة الحادية عشرة ظهرا (١٤١) ولكن الفكرة التي طرأت على رأسه لم تظهر الا في الليل البهيم بعد ان القى بالجثث خارج الخزان وسحبها الى رأس الطريق وبعد ان عاد اليها مجددا ليأخذ ما في جيوب اصحابها من مال وساعة مروان ... ( ١٤١ ـ ١٥٢ )

(**) نذكر هنا بما اوضحناه عن دور ابي الخيزران في موت الفلسطينيين الثلاثة خلال تتبعنا لدقائق عبور الحدود الكويتية في الصفحات السابقة ..